



بدأت هيلاري الكلام: نعم دكتورة! هل أصبحت قادرة على الكلام عن بل؟  
صرت في المحطة التي التقيته فيها في هذه القصة الملحمية.  
ابتسمت وأجبتها: إذا كنت جاهزة.

يا إلهي! أنا جاهزة منذ لحظة دخولي العيادة ولكنك لم تدعيني أفل!  
ابتسمت ثانية وقلت: لا أظن أن أحداً استطاع أن يمنعك من فعل أي شيء!  
صحيح، دكتورة، أنت على حق في ذلك! وافقت هيلاري مبتسمة. لنبدأ! إذا  
كنت ستقولين لي شيئاً، فمن الأفضل أن تقوليهِ الآن وإلا فستكونين مضطرة  
لالتزام الصمت إلى الأبد؛ لأنني إذا بدأت الكلام عن بل فقد لا ترغبين سماع  
أي شيء آخر مني لبعض الوقت. ابتسمت مرة أخرى.

كنت في مكتبة بيل، أطلع كتاب كارل أوغلزبي غريبان في العاصفة: تاريخ  
شخصي لحركة معاداة الحرب في الستينيات، حين لفت نظري على الطاولة  
المقابلة هذا الشاب الوسيم الذي بدا واحداً من الفايكنغ بشعره الطويل ولحيته  
الشعثة، ظل يحدق بي. لم أستطع تصور السبب، نظراً إلى أنها كانت المرة

الأولى في حياتي التي لم أكن فيها بكل تأكيد مثلاً لفتاة غلاف. كنت أرثدي سروالاً جَرَسِيًّا، ووضعت على عيني تلك النظارات العملاقة، وأسوق سيارة مهترئة قديمة ذات سقف من الفرش المربوطة. قذفت ذراعي أمام عيني كي أخرجه من ساحة رؤيتي لأتمكن من مواصلة قراءة كتابي دون شروود.

ما أثار اشمئزازي أنني عجزت عن التركيز، حين أنزلت ذراعي، كان لا يزال محدقًا. قلت في نفسي: من الأفضل أن أفعل شيئًا، طالما لم أكن قادرة على القراءة، على أي حال. مشيت نحوه مستعدة لأقول له: ما الذي تنظر إليه، يا زميل؟ ألم يسبق لك أن رأيت سيدة من قبل؟ إلا أنني ولدهشتي، بادرت بدلاً من قول ذلك إلى مدي قائلة: «دائب أنت على التحديق بي منذ وصولي إلى هنا. هل تريد أن تعرف اسمي؟ أنا هيلاري رودهام. وما اسمك أنت؟».

ابتسم ابتسامته الرائعة تلك، مد يده، وقال: «أنا بل كلنتون». غير أنه حين حاولت استرجاع يدي، منعني من سحبها، ظل ممسكًا بها وينظر في أعماق عيني. وقفنا هناك، متجمدين معًا للحظات، وأحسست برعشة خوف منزلقة على عمودي الفقري. في مكان ما شعرت بأنني وقعت في المصيدة مدى الحياة، وبتنا بالفعل منذ تلك اللحظة غير قابلين للانفصال.

فكرت: لا غرابة أنها ليست حدسية؛ فحين يُحدَس بشيء، يكون الأمر بالغ العمق ومخيفًا إلى درجة الموت؛ من الأفضل عدم معرفة الشيء بدلاً من الانسحاق خوفًا منه الوقت كله!

نظرت إلى اليد الممسكة بيدي وأذهلتني بجمالها. نظرت إلى بثبات وقالت تبدين متفاجئة دكتورة، لماذا؟ ألا أبدو كأولئك الذين يعجبون بالأشياء الجميلة ويلاحظونها؟ بل بالغ الروعة، ما زلت مغرمة بالنظر إليه. رسغاه ضيقتان وأصابعه الطويلة أنيقة أشبه بأصابع أي جراح أو عازف بيانو. أعشق النظر إليه وهو يقلب صفحات كتاب، وأستطيع أن أبقي متابعة إياه وهو يفعل ذلك إلى ما لا نهاية، لم يسبق لي أن التقيت شخصًا مثله.

وتابعت: لسنا بصدد الحديث عن شاب يبدد أي وقت! جلست بجانبه بلا دعوة، وعلى الفور بدأ يحدثني عن نفسه، عن التفوق الذي مكنه من الفوز بزمانة رودس، عن أمه المحبة، عن أبيه الراحل، عن طفولته الوحيدة، عن طموحاته، عن كل شيء يخصه. وكما لو كان يحذرني، قال إنه كان سيرفض عروض الشركات الحقوقية جميعها، وسيعود إلى أركنسو بعد مدرسة الحقوق. قال: وسأصبح حاكماً! لاحظي أنه لم يقل إنه كان سيحاول أن يصبح حاكماً، بل كان سيصبح حاكماً.

فيما بعد، أخبرني أنه كان يراقبني منذ شروعنا كلينا في حضور الحصص الحقوقية نفسها؛ أفاد بأنه لم يكن قد سبق له قط أن رأني، وكان جالساً في الصف الخلفي من مقاعد الغرفة عندما لاحظني للمرة الأولى، أقر بأنه فوجئ بقوتي ورباطة جأشي ومدى معرفتي الدائمة لأجوبة أسئلة الأساتذة، قال إنه بدأ يلاحظني في المدينة الجامعية. مضحك حقاً! لم أدرك ذلك إلى أن أخبرني به.

صارحها مباشرة برغبته في رفقتها الدائمة، وبأنه لم يكن يمل منها قط، وفي مرحلة مبكرة جداً من علاقتهما عبر عن استعداداه بشغف لأن يكبر معها.

تابعت هيلاري: ارتبكت. حتى في البداية الأولى، أوهام الاقتران به زواجا راحت تطن في أعماق رأسي؛ أنا هيلاري دائمة الانضباط ورجاحة العقل! تصورت أنه كان قد قرر سلفاً أن يطلب مني الاقتران به زواجا، ورحت أنظر في الاقتراح. أدركت أنني إذا سايرت مخططاته فإن من شأن الأمر أن يكون أشبه بالانتساب إلى فريق كرة قاعدة ثانوية على أمل الارتقاء يوماً إلى مستوى فريق رئيسي.

بالمقابل، إذا حذوت حذو نجمي، فقد أخسره. لم يبدُ الوضع واعدًا بقوة. ومع ذلك، فإننا تابعتا الجلوس غارقين في الكلام إلى أن اضطر الناظر لطردها من المكتبة. على الدوام درجت على أن أكون محكومة بعقلي لا بقلبي، إلا أن

بل رجل شديد الإغواء؛ ومهما بدا الأمر غير وارد بالنسبة إليّ أنا الباردة والمحترمة المتحفظة، فإنني رافقته إلى غرفته. أحياناً أفكر أنه كان على أبويّ أن يقيداني بالحبال.

فكرت: يقوم بل بسد الفراغ الموجود عند هيلاري؛ كله قلب وعواطف، في حين أنها، كلها، رأس وعقل. معاً يشكلان شخصاً كاملاً.

تابعت هيلاري الكلام: مباشرة أضفى على حياتي متطرفة الاحتشام طوفاناً من المرح والألق؛ حولني إلى امرأة زاحرة بالشغف، صرت غارقة في بحر من العواطف التي لم أستطع التحكم فيها؛ أصبح السؤال الجوهري في حياتي متمثلاً ب: هل يجب عليّ أن أختار المتعة أم ضبط النفس؟ للمرة الأولى في حياتي راح ميزان زئبق أمني ينصرف في المكان كله. لم أعد أستطيع أن أكل، لم أعد قادرة على النوم، لم أعد قادرة حتى على الدراسة؛ لم أعرف ما العمل؛ كل ما كنت أعرفه هو أننا كنا متناسبين تماماً، طنجرة عثرت على غطائها، يدٌ اهتدت إلى قفازها. استغرق بقاؤنا في السرير مدة ثلاثة أشهر.

قررت مناقشة هذا كله مع أحدهم – وأنا الشهيرة بعدم الكلام بالمطلق عن ذاتي مع أحد – اخترت صديقي السابق؛ ديفيد روبرت الذي كان صايفي الذهن مثل أي مهمن كنت أعرفهم، لألتمس منه النصح.

قلت له: «أعاني مشكلة يا ديفيد؛ أنا مجنونة بحب هذا الزبون بل كلنتون الذي يقول إنه سيصبح حاكم أركنسو. يقنعني مئة بالمئة بأنه سيفعل، ذلك هو الشخص، أجدني ميالة إلى الذهاب معه إلى أركنسو، ولكن ماذا عندئذ عن طموحاتي أنا؟!».

جعّد جبهته وسألني سؤالاً وحيداً: «هل تحبين بل؟». ودون إضاعة نبضة واحدة، أجبته: نعم؛ قال: «مبارك، إذن تابعي!» عانقته فكشفت سلفاً تأثير بل فيّ. كان ديفيد قد قال ما كنت راغبة في سماعه تماماً.

وأنا في السنة الثالثة ببيل، انتقلنا بل وأنا معاً، استأجرنا بيتاً على الطراز الفكتوري، خارج المدينة الجامعية، بيتاً ذا مدخل مسقوف مؤطر بأعمدة بيضاء، إلا أن الأمور لم تكن مستقرة فيما بيننا كما صورتها في البداية؛ بُعيد دخولي، يبدو أن الأوضاع انقلبت رأساً على عقب؛ ففيما أصبحت أنا أكثر غرقاً في بحر بل، صار هو متناقضاً بشأن علاقتنا؛ لم يكف للحظة عن الانشغال بطموحاته السياسية المحلقة، بات قلقاً من أن يكون قد وقع في حبي كما قال؛ لأنه كان ملزماً بالعودة إلى آركنسو ليصبح حاكماً. أنا أيضاً صرت قلقة، لم أستطع تصور العيش في آركنسو، إلا أنني كنت غير قادرة على تحمل فكرة ترك بل.

على الرغم من أنني كنت مبرمجة للتخرج في 1972م، فقد أصبحت شديدة الحب لبل حتى عشت معه في نيوهافن عاماً آخر إلى أن تخرج؛ أمضيت السنة متبعة دورات تنمية أطفال بمركز ببيل لدراسة الطفولة، لم أكن أحاول الحصول على شهادة جامعية أخرى؛ فقط كنت أبدو الوقت كي أبقى قريبة من بل كلنتون.

